" أبعاد الموجة النفسية فى الشعر العربى الجديـــــد "

بقلم : ايليا ب الحاوى

من الظواهر التى تسترعى النظر فى مجال الدراسات النقدية الحديثة أن أكثر من ربع قرن قد مضى على المحاولات الأولى للشعر الجديد دون أن تقدم الحركـــة النقديـة دراسة عميقـة عن أسرار الجمال الحقيقية فى هذا اللون من الشعر . لقـــد مضت كل هذه السنوات فى تقنين الشكل الذى اتبعه الرواد فى هذا المجال ، ثـم جاء بعد ذلك التنقيب الجاد عن المضمـون .

ولكن .. ما الذى أضافته كل هذه الأبحاث والدراسات .. ؟ انها كانـت ـ ومازالت ـ هوامش على الطريق .. لم تكشف عن الجوهر .. ولم تضف كثيرا ، إن الكثرة الغالبة منها مجرد محاولات لتحديد ملامح هذا الوليد الجديد بنفس الأساليب والقوالب القديمة التى اتبعت فى نقد الشعر العربى ، وظلت هذه المحاولات تقف عاجزة عـن ملاحقة المولود الذى شب .. وأصبح فى مرحلة غزو لمرحلة النضوج الفنى المتكامل .

وقد أدى هذا القصور النقدى الى حالة هلامية لعدد كبير من الأعمال الشعرية التى خرجت للجماهير فى الأعوام العشرة الماضية بحجة تطوير التطوير .. وتجديد الجديد . وهذه الحالة .. ليست سمة لكل الأعمال الشعرية .. لكنها صفة لعدد منها ضاع أصحابها بين هذا الجمال الرائع للعمل الفنى والتفسير المتخلف لأسبابـه .

والتجربه التى نحن بصددها الآن ليست محاولة لتفريغ القصيـدة من شاعريتهـــا أو مضمونها عن طريق وضعها فى قالب رياض ، ولكنها ترمى أولا وأخيرا الى بحـــث أسرار الجمال فى الشعر العربى الحديث حتى نستطيع فى النهاية تحديد معالم أكـــثر وضوحا لهذا الجمال وتقنين أسبابـــه .

القوالب النقدية الراهنـــــة
تسرى على القديـم والجـديـــد

وخلال الخمسة والعشرين عاما الماضية والتى انتشر فيها الشعر الجديد كان مـــن أبرز ما تناوله النقاد فى محاولاتهم لتقييمه فكرة تنمية الخط الدرامى فى القصيدة ، وقـــد التزم عدد كبير من شعراء العربية بهذه القاعده فى أعمالهم الفنية على أعتبار أنها تمثـل بحق أهم وأخطر التجديدات التى أحدثها هذا الشعر .

لكن هذه القاعده ليست بدعا فى الشعر العربى ، فهنالك عشرات من القصائد العمودية ـ التى كتبت على مر العصور ـ قد اتبعت هذه القاعدة بنجاح يفوق كثيرا بعض قصائد الشعر الجديد التى التزمت بها .

ومن أمثلة هذه القصائد ما كتبه الشاعر العربى ابن الرومى (٢٢١ـ ٢٨٤ هجرية) حول متاعب السفر ، اذ نجده ينقل القارىء خلال رحلته عبر البر والبحر .. يعيش فى مخاوفه الشديدة ، فيبدأ قصيدته بتصوير عام ، ثم يعرض المحاور النفسية التى يقع فيها بين الخوف والرغبة ، ثم ينتقل الى صور المتاعب .. يجسدها لك .. فتعيش معه بين الأمطار والثلوج والفندق الذى يخشى انهياره ، تحس معه بالعطش الشديد ، وتنتقل من خلال كلماته بين أمواج البحر وهدوء نهر دجلة الذى يخفى وراءه مصائب الموت والغرق . وبذلك يحقق ابن الرومى ـ منذ أكثر من ألف عام ـ احدى قواعد الشعر الحديث التى بنى عليها النقاد حساباتهم خلال هذه السنوات الخمسة والعشرين الماضية ، كما نجد تأكيدا آخر لذلك فيما كتبه أبو نواس فى خمرياته من قصائد ذات نسيج مسرحى ، ولذلك فأن القول بأن تنمية الخط الدرامى فى القصيدة هى إحدى إضافات الشعر الجديد وخصائصه مجرد ادعاء لا تسنده الحقائق الأدبية التاريخية .

مفهوم القمم والقيعان
فى الشعر العربى الجديد

ومع ذلك فأن الشعر الجديد .. كان له الفضل فى بناء القصيدة الشعرية على عالم خاص ينزع القارىء اليه ـ دون وعى منه ـ ليعيش هذا العالم الذى يعبر أولا وأخيرا عن صورة انسان العصر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .

وانسان هذا العصر يحيا احدى لحظات حياته مع قمة نفسية بالسلب أو الايجاب ، كما أنه فى لحظة أخرى مقاربة للأولى يحيا فى قاع نفسى بالسلب أو الإيجاب أيضا .

ولن نكون مبالغين إذا قلنا : إن هذا الأنسان يعيش فى نفس اللحظة مجموعة من المحاور النفسية المتناقضة . هذا هو إنسان العصر .. لهذا كان على

الشاعر الصادق ذى الموهبة الأصيلة ٠٠ والرؤية الواضحة ٠٠ أن يخرج من تجربته الخاصة ٠٠ ومن طين الأرض الذى يغوص فيه ٠٠ يحمل فنى له نفس معالم هذا الانسان ٠

والواضح فى هذه الأعمال ـ التى سنتناولها بعد حين ـ أنها تلعب أساسا على وتر الاحساس النفسى لدى القارىء صعودا وهبوطا بشكل محسوس ٠

ولقد تطورت هذه الفكرة منذ المحاولات الأولى للشعر الحر ، مع تطور الانسان العربى وتعدد ألوان الحياة التى يعيشها ٠ فهى ليست جديدة تماما على الفن ، بل نجد لها أمثلة واضحة فى الموسيقى ((السيمفونيات)) وفى الفنون التشكيلية كالسيد يالية ٠ وهى أيضا أفكار ليست مقننة فى هذه الفنون ٠٠ تماما مثل الشعر ٠

ولكى نعطى صورة واضحة عن هذه الفكرة ٠٠ لا بد من العودة إلى المنابع التى خرجت منها هذه المحاولات المتطورة ٠

ان المنبع ٠٠ هو بصيرة الفنان بنظام هذا الكون وادراكه بوعى أو بغير وعى لحقائقه العلمية ٠٠ فمن المعروف تماما أن الصوت والضوء ـ طبقا للنظرية القديمة ـ ينتقلان عبر موجات ، وهذه الموجات ليست خطوطا مستقيمة ٠٠ ولكن لها مسارا ٠٠ صاعدا ٠٠ هابطا ٠٠ يقطع المحور الأفقى فى مجموعة من النقط تمثل المسافة بين كل اثنتين متتاليتين منها نصف الموجة أما الموجة الكاملة فتساوى مجموع مسافتين كل منهما بين نقطتين متتاليتين ، هذه هى الموجة فى أبسط صورها ٠٠ وهى التى جرت محاولات الشعراء المحدثين فى اقتفاء أثرها بتحويل الاحساس العام فى القصيدة إلى إحساس متماوج فى تآلف وتناسق يشبه الى حد كبير الهارمونية " أصول التآلف الصوتى " فى الموسيقى ٠

المحاولات الأولى ٠٠

وقبل أن نتناول المحاولات الأولى لتجسيد هذه الفكرة ، يجب أن نحدد موضع المحور الأفقى ـ كما فى حالة الموجة ـ بالنسبة للقصيدة الشعرية ، والمحور الأفقى هنا يمثل الإحساس العام الذى تتركه القصيدة لدى القارىء ٠٠ وتدور حوله

النبضات الشعرية لتصعيد الاحساس النفسى الى القمة أو الهبوط به الى القاع .

بدأت تلك المحاولات باستخدام جزء من هذه الفكرة فقط .. أو بلغة العلم قدمت للقارىء نصف موجة فقط .. وكانت البداية أيضا مع نبضات التطوير الأولى للشعر الجديد .. إذ نكاد نلمح هذه الفكرة فى قصيدة " سوف أمضى " للشاعر العراقى بدر شاكر السياب التى كتبها عام ١٩٤٨ .

يقول الشاعر فى قصيدته :

سوف أمضى .. أسمع الريح تناديني بعيدا
فى ظلام الغابة اللقاء .. والدرب الطويل
يتمطى ضجرا ، والذئب يعوى ، والأفول
يسرق النجم كما تسرق روحى مقلتاك
فاتركينى أقطع الليل وحيدا
سوف أمضى ، فهى مازالت هناك
فى انتظارى ؟

ففى هذا المقطع يبدأ الشاعر نغمه هادئا (سوف أمضى .. أسمع الريح تناديني بعيدا) . ويتحرك الاحساس النفسى للقارىء مع شاعره هادئا كنغمه .. ويرتفع النغم .. (والدرب الطويل يتمطى ضجرا) .. ويصل الشاعر بقارئه الى قمة الاحساس عندما يعلنه أن (الذئب يعوى .. والأفول يسرق النجم كما تسرق روح الشاعر مقلتا حبيبته) ثم يعود الشاعر الى الهبوط بدرجة النغم مره أخرى .. (فاتركينى أقطع الليل وحيدا) .. ثم يعود إلى درجة النغم التى بدأ بها .. فهى (مازالت هناك فى انتظارى) .

وفى قصيدة أخرى للسياب .. " فى غابة الظلام " وقد كتبها عام ١٩٦٤ ، نلمح هذه الفكرة وبدرجة مقاربة لتجربته فى القصيدة السابقة ، فنراه يقول

فى المقطع الثالث من هذه القصيدة :

أليس يكفى أيها الا لـــه
أن الفناء غايـــة الحيـــاة
فتصبغ الحياة بالقتـــام ؟
تحيلنى ، بلا ردى ، حطـــام
سفينة كسيرة تطفو علـى المياه ؟
هات الردى ، أريد أن أنـــام
بين قبور أهلـــى المعشره
وراء ليـــل المقبره
رصاصة الرحمـــن يا إلـــه !

والشاعر هنا يبدأ نغمة من نفس مستوى الاحساس العام للقصيدة ، (اليس يكفى أيها الاله .. أن الفناء غاية الحياة) .. ويصحب الشاعر قارئه فى احساس نفسى متصاعد .. ويرفع من درجة النغم إلى القمة .. (هات الردى) .. ثم يعود فيهبط مع الإحساس النفسى لقارئه .. ولكن بشكل مسرعا .. (أريد أن أنام .. بين قبور أهلى المعشرة) .. إلى أن يصل مع قارئه الى نفس درجة النغم التى بدأ بها هذا المقطع (رصاصة الرحمن يا إله) .

.....

وفى قصيدة الى شاعر عدو " للشاعر عبد الوهاب البياتى ـ كتبت فى بداية الستينات ونشرها فى ديوان " النار والكلمات " ـ نلمح هذه المحاولة أيضا .. يقول الشاعر فى قصيدته :

الكلمات تصنـــع السماء والأشجـــار
والحزن والأشعار والأمطـــــار
الكلمـــــات النـــــار
لكنهـــــا الأحجـــار

تبقى على الرصيف

تبقى أبدا أحجار

فى هذه المقطوعة التى بدأ بها الشاعر قصيدته يتخذ من التجربة الموجيَّة أسلوبا للتأثير .. كلماته [تصنع السماء] .. نغم هادىء .. لكن نفس الكلمات تصنع أيضا [الحزن والأشعار] .. ويتحول النغم من الهدوء إلى الشجن .. ولكن الكلمات تتحول إلى [نار وسعير] .. ثم درجة النغم .. ليهدأ فى نغمة مرة أخرى .. [لكنما الأحجار .. تبقى على الرصيف] .. ويصل إلى الدرجة التى بدأ بها نغمة .. تبقى أبدا أحجار .

الموجة الكاملة فى القصيدة

والتقط الشاعر حسن فتح الباب بداية الخيط لينمّى هذه الفكرة ، ويصل فى قصيدته " تأملات فى ليلة صيف " التى كتبها عام ١٩٧٤ الى صورة ناضجة لفكرة القصيدة الموجيَّة بما فيها من قمم وقيعان ، والشاعر فى هذه القصيدة يعبر بصدق عميق عن آفاق هذا العالم الذى نعيشه بمختلف صوره .. وهى تزخر بشحنه من الشجى الدفين فى القلوب ، محددة بصورة واضحة آفاق المستقبل على أرضنا العربية ، لقد استخدم فيها الشاعر ، كثافة فكرية شديدة ، وصورا عديدة متلاحقة .. درجات من النغم متفاوته لكنها غير متناقضة .

ان هذه القصيدة ـ باختصار شديد ـ ذات مضمون سياسى .. نسجت خيوطه فى اطار من الحب الشجى .. لها نظرة فلسفية تنبع من تجربة الشاعر الدامية على ارض بلاده .. ورؤية شاملة للكون من خلال جزئيات تأخذ أحيانا صورة التعميم واحيانا أخرى التخصيص الذى يتحول بنبض النغم الشعرى إلى الرؤية الشاملة . يقول الشاعر فى قصيدته :

أسمع كل الأصوات المطمورة فى قاع النهر
والأجنحة الطافية على وجه الموج
تسمعنى الغابات الزاحفة على صدر الأفق
وأرانى أفنى .. أحيا فى كل الأشياء
تخطفنى أشباح الشجر الأسود
وتحاصرنى الأوراق الحمراء
فى الليل تدق الريح على باب النهر
تتكسّر موجات الوهم على صخر الشطين
تتساقط قطرات الحزن على نافذة الحلم
ويموت الصمت
لكنّ الحب الدافئ فى الأعماق
الحب الحالم فى العينين
ليس يموت

فى هذا المقطع الذى نعيش فيه مع رؤية شمولية للكون وكأننا نسمع مع الشاعر كل الاصوات المدفونه فى قاع النهر ... نحيا معه فى كل الأشياء .. وينقلنا الى رؤية خاصة عندما تحاصر الشاعر أوراق حمراء ، فنجد درجة من النغم الواسع الرحب تعطى انطباع الشمولية ايضا ، وتصبح هذه الدرجة هى المحور الأفقى الذى تدور حوله - فى اتجاهات مختلفة - درجات النغم ما بين الحاد الصارخ والهادئ الحالم وتقع بينهما كل درجات السلم الموسيقى .

ها هو يبدأ نغمه الواسع الرحب بسماع [كل] الاصوات المطمورة فى قاع النهر] ... ثم يعلو به فى سرعة وتوافق .. يسمع أيضا أصوات [أجنحة الطائر الطافى على وجه الموج] .. وتعلو درجة النغم أكثر وفى سرعة أيضا .. [تسمعنى

الغابات الزاحفة على صدر الأفق .. وهنا .. رغم الهدوء النسبى للنغم نسمع صرخاته الحاده الدفينه بين الكلمات ، صوته هنا تسمعه البشرية الزاحفة على صدر الأفق فى صوره رجال المقاومة فى كل مكان بالعالم من فلسطين الى انجولا ودول امريكا اللاتينية ، ثم يفجر أنغامه — فى صورة نغم حاد عال رغم الصورة الخاصة جدا — حين يرى نفسه يغنى .. ويحيا فى كل هذه الأشياء. ويلقى بعد ذلك بصور مروعة [تخطفنى أشباح الشجر الأسود] لكن فى درجة من النغم تقل فى حدتها عن درجة النغم فى البيت السابق ، ثم يصل فى هدوء شديد إلى درجة النغم الأصيلة .. [وتحاصرنى الأوراق الحمراء].

انتهى الشاعر فى هذه المقطوعة الى المحور الأفقى للموجة — محور درجة النغم العام فى القصيدة [فى الليل تدق الريح على باب النهر] لكنه يواصل تخفيض درجة النغم بهدوء ملحوظ رغم استخدامه لكلمات مسموعة الصدى .. [تتكسر موجات الوهم على صخر الشطين] .. وفى تمكن شديد يطوع الشاعر نغمه فى القصيدة الى درجة أقل .. [تتساقط قطرات الحزن على نافذة الحلم] إلى أن يصل الى قاع الموجة .. [ويموت الصمت] .. ولكن آلته الموسيقية توشك أن تتوقف تماما بعد ما سبق أن أحدثته من صخب عال ، لكنه لا يتوقف عن العزف لذا يعلو النغم هادئا مرة أخرى .. [لكن الحب الدافئ فى الأعماق] .. ويعلو النغم .. [الحب الحالم فى العينين] .. ويصل بالنغم إلى الدرجة العامة التى بدأ بها فى كلمتين فقط .. [ليس يموت] ويكرر الشاعر فى قصيدته تنويع الإحساس النفسى لدى القارئ فى صورة الموجة الكاملة بعد هذا المقطع مرتين وبذلك يعطى للقارئ ثلاث موجات كاملة فى القصيدة الواحدة ، لكن كلا من هذه الأمواج متنوع الرؤية متكامل الإحساس .

وفى هذه القصيدة تعيش تماما وكأنك تسمع إحدى السيمفونيات .. والشبه ليس غريبا فالسيمفونية تتكون من أربعة أجزاء // بين كل منها لحظات صمت ، وكل جزء من هذه الأربعة له درجة من النغم تختلف عن الاخرى من السريع الى المتمهل الى السريع جدا الى الراقص ، والشاعر هنا يعطى فى بساطة شديدة صورة

صورة مماثلة .. وان كان قد استخدم ثلاثة أجزاء فقط .

وقد صاحب هذا التنوع فى النغم .. تنوع آخر ـ لا يخفى على القارىء ـ إنه تنوع الأفكار والصور .. نستعرض منها هذه الابيات بلا ترتيب :

أعرف كل الأموات

هل يختلف الأحياء عن الموتى ؟

.....

هل تسرح مصباحك فى ضوء الشمس ..؟

مازال الكون بعيدا .. والغد

بين يدى عصفور مخضوب العينين

.....

الليل طريقى ياشجر الفجر إليك

ياكروان القمراء

.....

وهذا التنوع فى الأفكار والصور يخدم الى حد كبير التنوع فى النغم والشكل الموجى الذى اتبعه الشاعر فى قصيدته . ولكن الشاعر رغم الجهد الذى بذله فى هذا التكنيك الجديد على القصيدة العربية .. يفجر فى ختام القصيدة تجربة سابقة له فى الخطوط المتوازية .. إنه يقول :

تحملنى الاصداء الجوابة خلف البريه

والأجراس الفضيه

تلمع بين الأبراج المهجورة والسحب الحمراء

تحملنى ريح العاصفة على جسر العوده

أحلم فى بعدك بالإسراء

لقد مهد الشاعر فى المقطع الأول من القصيدة لأحد خطوطه المتوازيه عندما نبه أنه يتحدث من أعماق قلبه الى الرجال الذين يذوبون من أجل تحقيق الحرية ... [تسمعنى الغابات الزاحفة على صدر الأفق] ، ثم يعود ليؤكد ذلك المعنى بعد أن زاده تخصيصا .. وحدده أكثر فى القضية التى تشغل باله منذ زمن طويل والتى اعطاها جانبا كبيرا من فكره وفنه ، إنها قضية الوطن .. فلسطين .. [تحملنى ريح العاصفة على جسر العودة] .. ما زال حلمه بالعوده هو الأفق الذى يدور فى فلكه حلمه وفكره ونبضه الشعرى .. [أحلم فى بعدك بالإسراء] تأكيد أعمق على هذا البعد الهام الذى أعطاه من قبل ديوانا كاملا وهو ديوان [عيون منار].

.....

وفكرة القصيدة الموجية .. بما فيها من قمم وقيعان ونغم متنوع الدرجات هى بلا شك إحدى التطويرات الهامة التى أدخلها الشعر الحديث ليكون بذلك أكثر قدرة على التعبير عن انسان العصر الحالى فى مختلف قضاياه الانسانية والوطنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، إنها تعبير صادق عن متناقضات هذا العصر التى تحيط الانسان بعالم متموج الأحاسيس متناقض الفكر متعددة تطلعاته .. يفكر ويعمل فى نفس اللحظة بعاملين متناقضين هما الحرب والسلام .

* ايهاب الخضرجى *